تقرير عن الحفريات الاثرية الاولى للجامعة الليبيـــــة
التى قام بهـا قسم الاثـار بكليـــة الاداب فى مدينـة توكـرة الاثرية (١٧ــ٢٩ أبريل ٧٢م)

اختيار موقع الحفريات :

جرت الاتصالات منذ بداية العام الجامعى ١٩٧١/٧٠م بين كل من عميد كلية الاداب ورئيس قسم الاثار بالكلية وبين الادارة العامة للاثار الليبية فيما يختص باختيار موقع لاجراء الجامعة فيه حفرياتها الاثرية ولتدريب طلبة قسم الاثار بكلية الاداب على اعمال الحفر والتنقيب بالطرق العلمية السليمة .

ولقد تم الاتفاق بين الادارة العامة للاثار وبين عميد كلية الاداب ورئيس قسم الاثار على اختيـــار منطقتين للحفر والتنقيب . وذلك مثبت فى خطاب الاخ الاستاذ عوض السمداوية المدير العام المنتـــدب للادارة العامة للاثار (رقم أ ع ت /٥٣٢٦/٥٨ بتاريخ ٩٠/١١/١٣ هـ الموافق ٧١/١/١٠م) وخطـــاب رئيس قسم الاثار لعميد كلية الاداب المتضمن الموافقة الشفوية على المنطقة مع الاخ الاستاذ عوض السمداوية والمؤرخ (بنغازى ٣ محرم ١٣٩١ هـ الموافق ١٩٧١/٢/٢٨م) والخطاب(١٣٩١/١/٦ هـ الموافـــق ١٩٧١/٣/٣م) والمرفق صورتيهمـا .

وتقع المنطقة الاولى التى حددتها الادارة العامة للاثار بالقرب من المحجر الشمالى الغربى الواقـع داخل اسوار مدينة توكرة الاثرية ، بينما تشمل المنطقة الثانية "التى اختارها رئيس قسم الاثار بموافقة المديـر العام للادارة العامة للاثار ــ الكنيسة الشرقية (ذات الاعمدة) وكذلك الحوض المكشوف الواقع جنوب شـــرق الكنيسة المذكورة (خريطة ١) ، كما تشمل هذه المنطقة ايضا الكنيسة الملاصقة للحوض من جهة الغرب والتى ورد ذكرها لاول مرة فى البحث الذى كتبه الدكتور فوزى الفخرانى باسم " اضواء على تاريخ وآثار توكرة " الذى سينشر ضمن ابحاث المؤتمر السادس العربى للاثار (طرابلس سبتمبر ١٩٧١م . وستنشره جامعة الـــدول العربية والذى ذكر الدكتور الفخرانى فى محاضرة بالجامعة الليبية (مارس ٧١م) ــ كما تتضمن هذه المنطقة كذلك الكنائس الاخرى الواقعة بين هذا الحوض والكنيسة الشرقية (ذات الاعمدة) .

الاعداد لاجراء الحفريات وتكوين البعثة :ــ

لقد تأخر البدء فى اجراء الحفريات عن موعدها المقرر لها فى اكتوبر ١٩٧١م بسبب عدم تواجـــد واستكمال الانواع المناسبة والصحيحة من الادوات الضرورية لاعمال التنقيب والتسجيل والترميم وتنظيـــف المكتشفات والتصوير والتحميض والطبع ورسم الفخار والرسم المعمارى والمخططات وكذلك لعدم توفر المكتبـــة الاثرية اللازمة لعمل الدراسات الخاصة بالمكتشفات ــ ولقد سبق ان قدم رئيس قسم الاثار قوائم خاصة لكـــل من هذه العمليات قبل نهاية العام الدراسى المنصرم ٧١/٧٠م وقبل بداية العطلة الصيفية لعام ١٩٧١م . ونظرا لعدم توفر كل هذه الادوات الضرورية بليبيا اخطرت الكلية بالاتفاق مع قسم الاثار الى تجهيز البعثة بما يمكن توفيره من هذه الادوات . وحيث انه لم يتم تدبير ذلك الا قرب نهاية العام الدراسى الحالـــى ــ لذلك كان لزاما اختصار المدة المقررة لاعمال التنقيب حتى يستطيع الطلبة ان يعدوا انفسهم لامتحانـــات الدور الاول (مايو ١٩٧٢) . لهذا تقرر ان تبدأ الحفريات يوم ١٩٧٢/٤/١٧م وتنتهى يوم ٧٢/٤/٢٩م كما تقرر ان يرأس البعثة الاستاذ الدكتور فوزى الفخرانى رئيس قسم الاثار واستاذ مادة " الحفر والتنقيب " واختار لمعاونته الزميلين الدكتور توفيق سليمان والدكتور احمد غزال من اعضاء هيئة التدريس بالقســـم كأعضاء فى البعثة ــ ولقد تقرر ان يقوم طلبة المرحلة الوسطى بالقسم (السنة الثالثة) باعمال التنقيب والتسجيل دون استخدام اى عمالة اخرى .

وذلك حتى تتاح للطلبة فرصة التدرب على جميع الاعمال التى يقوم بها عادة فى الحفريات الاثرية مدير الحفريات والعمال على السواء ، ولكى تتاح للطلبة ايضا فرصة التدرب على كل المراحل التى تمر فيها الحفريات الاثرية منذ بدايتها حتى نهايتها . وذلك اسوة بما هو متبع فى جامعات اوروبا وخاصة انجلترا والمانيا على سبيل المثال .

وعليه فلقد اشترك بحفريات هذا الموسم الطلبة الاتية اسماءهم :ـ

(١) حافظ احمد الولده (٢) عبد الله الصيد (٣) محمد صغير ثامر (٤) سليمان ساسى سليمان (٥) حسنى عبد الرحمن المسلاتى (٦) احمد المغربى (٧) الطيب البهلول (٨) فرج المسورى (٩) رمضان قويدر (١٠) مصطفى ابوشيحة (١١) عدنان الاسطى (١٢) بشير اسميمر (١٣) عبد الله احمد عبد الله (١٤) محمد سعد الكواش (١٥) عبد السلام الكواش (١٦) احمد الفلقى (١٧) محمد على عيسى .

ونظرا لعدم توفر المساح الاثرى والرسام المعمارى واجهزة المساحة بالقسم بعد ـ لذلك قامت ادارة الكلية بالاتصال بوزارة الاسكان لمد البعثة بمساح وبالاجهزة اللازمة للاشتراك فى اعمال الحفريات . ولقد قام المساح محمد الحايك من موظفى الوزارة باعمال المسح وان كانت التزاماته فى الوزارة لم تسمح له بالحضور الى توكرة الا ثلاثة ايام فقط ، اتفق معه مدير البعثة على ان تكون ايام ١٦ ، ١٧ ، ٣٠ أبريل ٧٢م . ومن ثم ذهب الاساتذة اعضاء البعثة الى توكرة يوم ١١ أبريل ، لاعداد مواقع الحفر واجراء عمليات المسح الاثرى وتخطيط مواقع الحفريات قبل وصول الطلبة . الا ان يوم ١٦ قد ضاع دون ان ينفذ المساح فيه شيئا خاصة وقد وجهنا الاخ منصور ملاحظ المنطقة الاثرية بتوكرة الى موقع آخر خلاف الموقع الذى اشار علينا به الاخ الاستاذ عبد الحميد مراقب آثار بنغازى ليكون هذا الموقع فى حدود المنطقة الاولى . ولهذا استؤنفت عملية المسح ، وتخطيط المواقع للحفريات ، واخذ ارتفاع المنطقة عن سطح البحر فى اليوم التالى اى فى ١٧/٤/٧٢م .

وبعد عودة الاساتذة اعضاء البعثة والطلبة الى بنغازى يوم ٢٩/٤ بقى رئيس الحفرية يوما آخر اى (٣٠/٤/٧٢) وذلك للاشراف والمساهمة فى اعمال المسح وربط الموقع على الخريطة وكذلك فى اعمال التصوير وارشاد مصور الادارة العامة للاثار الذى حضر من شحات ـ بناء على طلب رئيس البعثة ـ للتصوير بواسطة الكاميرا الاستوديو حيث انه ليس لقسم الاثار كاميرا مثلها على اهميتها ـ كذلك اشرف رئيس البعثة فى ذلك اليوم على اقامة سياج حول الكنيسة المكتشفة والحوش الملاصق لها كما اشرف على عملية ترميم الفسيفساء عند المناطق المعرضة للدمار ولقد قام بالترميم بالاسمنت وعمال السياج من الاثار فى توكرة .

وبالاضافة لبعض هذه الخدمات التى قدمتها الادارة العامة للاثار مشكورة للبعثة تفضلها بوضع الاستراحتين الموجودتين فى توكرة تحت تصرف البعثة طوال مدة الحفرية ـ ولقد استخدمت الاستراحة الكبيرة (العليا) والتى ينام فيها الطلبة كمطعم لجميع المشتركين فى الحفرية ومطبخ وللدراسة ، بينما كان مبيت الاساتذة فى الاستراحة الصغرى التى استخدمت كمخزن للمكتشفات والمواد التموينية والادوات الدقيقة . ولقد خصصت الادارة العامة للاثار حجرة خلف المتحف لحفظ الادوات المستخدمة فى الحفر .

اما كلية الاداب والجامعة الليبية فلقد تكرمتا مشكورتين بتحمل كل تكاليف الاقامة والاكل وتجهيز البعثة بادوات المبيت والطبخ والاكل وادوات الحفر والتسجيل كما وضعت سيارة لاند روفر وسائقها تحت تصرف البعثة طوال مدة الحفرية وامدت البعثة بطباخ ومباشر لاعمال الطبخ والنظافة .

خطة العمل :ـ

كان من المقرر ان يتدرب الطلبة على العمل فى كل الاعمال فى المنطقتين المذكورتين وبالتناوب لاختلاف طبيعة العمل فى كل منطقة . اذ كان من المتوقع منذ البداية ان تمدنا المنطقة التى اختارتها الادارة العامة للاثار بتسلسل فى الطبقات وتباين بينها اكثر مما تزودنا به من آثار معمارية . بينما اتسمت منطقة الحوض والكنائس التى اختارها رئيس البعثة بطبيعة مكتشفات معمارية وربما زخرفية .

ونظرا لقصر مدة الحفرية لقرب ميعاد بدئها من امتحانات الدور الاول بالجامعة ، ولقلة عدد الايدى العاملة فيها من الطلبة حيث ان عددهم ١٧ طالب فقط ، سيكونون موزعين بين المنطقتين . بل ان تدريبهم شمل كل الاعمال المرتبطة بالحفر والتسجيل وتحديد الموقع (وهذا يتضمن المسح الاثرى للموقع وتخطيط الحفرات على شكل مربعات او مستطيلات باحجام مختلفة حسب طبيعة الموقع ونوع الحفرة) والتسجيل بانواعه . ولقد قام فعلا رئيس البعثة قبل بدء العمل وفى حضرة الزملاء اعضاء البعثة المشتركين فيها بشرح مراحل العمل للطلبة فيما يختص بالمسح من تدريب الطلبة على استخدام الـ (level) فى تحديد ارتفاع الموقع بالنسبة لمستوى سطح البحر واستخدام التيودوليت (theodolite) فى تخطيط المربعات وتوجيه الموقع بالنسبة للجهات الاربعة (الشمال المغناطيسى) وكذلك ربط الموقع بالنسبة للاثار والمبانى القائمة فى توكرة والمثبته على خريطتها التى تكرمت بلدية توكرة بتزويد البعثة بها . كما شرح رئيس البعثة كيفية تخطيط الموقع بالضوبار والجير (صورة رقم ١) ثم طريقة الحفر فى المربع بعد تقسيمه داخليا وطريقة استخدام ادوات الحفر المختلفة ومتى يستخدم كل منها ، وكذلك طريقة تسجيل بطاقات جداول واكياس كسر الفخار وتسجيل الطبقات المختلفة للتربة فى الحفرة (Loci) ، وطريقة تسجيل المكتشفات قبل نزعها من التربة وتصويرها وتسجيل الطبقات والموقع بالكاميرا والصور ، وطريقة كتابة يوميات الحفرية والرسم البيانى اليومى للمقاطع فى الحفر افقيا ورأسيا ، وتسجيل مواقع المكتشفات فى اليوميات وفى الرسم البيانى ، وكيفية تطبيق كل هذه الاشياء والخطوات على المواقع المختلفة سواء كانت مجرد طبقات او مكتشفات وسواء كانت هذه معمارية او فسيفساء او مقابر او جرار فخارية او زجاج وخلافه ـ بل لقد شرح رئيس البعثة لهم فى كثير من الاحيان الغرض من كل خطوة تتخذها البعثة قبل بدءها واثناء الحفر . وعلى سبيل المثال ما يترتب من حفر حفرة جديدة ، ولماذا اتخذ القرار لحفرها حتى يكون الطلبة على علم بكل ما يدور فى الحفرية ، وحتى يكون ذلك دافعا ايضا على التدقيق والحماس فى العمل لتحقيق الاهداف العلمية المرجوة من هذه الخطوة مثلا .

ولقد بدأ العمل اليومى فى الساعة السادسة والنصف صباحا بتناول الافطار فى الاستراحة ، ثم التوجه للمنطقة وبدء العمل فى السابعة صباحا وفى العاشرة يقدم للطلبة فى الموقع الشاى وبسكوت او خبزة وجبن مع الشاى او الحليب ويستأنف العمل فى العاشرة والنصف حتى الساعة ١٢٫٣٠ حين يعودون للاستراحة لتناول الغذاء وفى الساعة ١٥ يستأنف العمل فى الموقع ويقدم لهم فيه الشاى والبسكوت فى الساعة ١٧ ويستمر بعدها العمل فى كثير من الاحيان حتى الساعة ١٨ واحيانا ١٨٫٣٠ ـ ولا ينتهى العمل فى الموقع يوميا الا والموقع نظيف حتى يكون معدا للتصوير فى الصباح المبكر قرب الشروق ان دعت الضرورة لذلك . وبعد انتهاء العمل اليومى فى الموقع يعودون للاستراحة للدراسة او تناول العشاء فيتم فى الساعة ١٩٫٣٠ ثم يستأنفون دراستهم . ولقد قام الدكتور احمد غزال بشرح بعض المواد الدراسية للطلبة ومنها ما يصعب عليهم فى اللغة

اليونانية مثلا كما رد كل من الدكتور الفخرانى والدكتور توفيق على استفساراتهم العلمية فى المواد المختلفة ـ ولقد زار الموقع التى اجريت فيها الحفريات اثناء سير العمل كل من الدكاترة الاستاذ عميد الكلية والاستاذ وكيلها واعضاء مجلس الكلية واساتذة كلية الاداب . كما زار المنطقة التى اجريت فيها الحفرية طلبة المرحلة الاولى للتخصص بالقسم (السنة الثانية بالكلية) برفقة الدكتور عبد الله المسلمى من اساتذة القسم . وذلك يومى الاربعاء ٧٢/٤/١٩ والثلاثاء ٧٢/٤/٢٥ . وقام رئيس البعثة وكل من الزملاء الدكتور غزال والدكتور توفيق بشرح مراحل سير العمل فى المنطقتين والمراحل المختلفة للعمل ، كما ساهم طلبة هذه المرحلة فى هذين اليومين ببعض الاعمال المحددة .

ولقد قام بالتصوير العلمى للحفرية بالشرائح والصور الملونة الدكتور الفخرانى كما صور افلاما (ابيض واسود) للمنطقة وقام الدكتور توفيق سليمان بتصوير افلام ابيض واسود وكذلك الطالب محمد الكواش . وقبل نهاية الحفرية (يوم ٤/٣٠) استدعى مصور الادارة العامة للاثار من شحات ـ بناء عن طلب رئيس البعثة ـ لتصوير ٦ صور للمنطقة (ابيض / اسود) بالكاميرا الاستوديو لعدم توفر كاميرا مثلها لدى البعثة بعد .

وقام بالمسح الاثرى المساح محمد الحايك سواء فى تحديد الارتفاع بالنسبة لسطح البحر او لربط الموقع مع غيره من المبانى القائمة والمثبته على الخريطة او تحديد اتجاه الموقع والتخطيط بالنسبة للشمال المغناطيسى وقام رسام من الوزارة (الاسكان) برسم هذه المواقع على الخريطة ، وان كان لم يتسع الوقت لتحديد المواقع المذكورة كلها بدقة ـ وبناء من ارشاد رئيس البعثة .

اعمال الحفر فى المنطقة الغربية (المنطقة رقم ١ ـ TRENCH-I) :ـ

بعد ان خطط رئيس البعثة الموقع على شكل مربعين كل منهما ٥ × ٥ م وبينهما ممر بشكل مستطيل بطول متر وبعرض ١م (١×٥) وذلك لتمر فوقه عربات التراب ـ ان تطلب الامر الحفر فى المربعين المجاورين (صورة ١) . ولقد سمى الموقع رقم ١ (TRENCH I) ـ وكانت الخطة حفر احد المربعين على الاقل حتى الصخر الجوفى ـ ولكن لم يتحقق ذلك لان الحفرية سارت ببطء اذ انها كانت تعليمية ، كما ان العمل كان مستمرا فى هذه المنطقة وفى منطقة الحوض والكنيسة الملاصقة له فى الجهة الشرقية للمدينة مع قلة عدد الطلبة وقصر مدة الحفرية .

ولقد عهد للزميل الدكتور توفيق سليمان بالاشراف على هذه المنطقة الغربية وللدكتور احمد غزال بالاشراف على المنطقة الشرقية (الحوض والكنيسة) ، كما باشر الدكتور الفخرانى رئيس البعثة الاشراف على المنطقتين مع تركيز على كل منطقة عندما تبدو الحاجة لذلك ، وبعد ان اطمأن لسير العمل فى المنطقتين حسب الشرح الذى قدمه للطلبة على الموقع ـ فى حضرة الزملاء المشرفين على المنطقتين ـ وكان الطلبة احيانا يلجأون للاستفسار والتوجيه من الزميلين الدكتور توفيق والدكتور غزال فى حالة غياب الدكتور الفخرانى عن اى من المنطقتين ـ ان دعت الضرورة لذلك ـ وان رئيس البعثة لينوه بالمجهود الذى قام به الزميلان الدكتور احمد غزال والدكتور توفيق سليمان من اساتذة القسم فى نجاح اعمال الحفرية فى هذا الموسم ويذكر ما قاموا به بالشكر ومثابرتهم ودقتهم فى العمل .

ولقد وزع الدكتور توفيق العمل فى المنطقة الغربية (رقم ١) على الطلبة بشكل دورى وبالتناوب بحيث يقوم كل طالب بعمل زميله فى اليوم التالى وكذلك فعل الدكتور غزال فى منطقته حتى تتاح الفرصة لكل طالب مباشرة كل عملية بنفسه .

كما قسم الدكتور توفيق مربع التنقيب رقم ١ الى ثلاثة مستطيلات باتجاه شرق / غرب وظهرت منذ البداية ارضية حصوية ترابية وبها كسر متنوعة من الفخار — وكان النزول فى اى مستطيل لا يزيد عن عشرة سنتيمترات، اللهم الا اذا ظهر موضع (L 0٢٠٥) جديد آخر ((خشية ان تختلط مخلفات كل موضع (L 0٢٠٥) مع مخلفات موضع آخر)) . ولقد تابع وباشر رسم الطلبة للمنطقة فى اليوميات (رسم كروكى بمقياس $\frac{1}{50}$).

وطالما ان الهدف فى هذه المنطقة هو تدريب الطلبة على ملاحظة التباين فى اختلاف المواضع (L 0٢٠١) او الطبقات (Strata) وفصل محتويات كل موضع عن الموضع الاخر فى الجداول والاكياس والمخلفات والعلب الكرتون الصغيرة ، حسبنوعية هذه المخلفات ، مع تسجيل بيانات وبطاقات على كل منها ، وتسجيل عدد كل منها ، وطبيعة المكتشفات فى اليوميات وتحديد موقعها بالرسم البيانى فى صفحات الطيمترات بدفتر اليوميات ، وطالما ان هذا هو الهدف لذلك لم تكن هناك ضرورة الى حفر المربع بكامله وعليه اضطررنا مع بطء العمل الى اختصار مساحة التنقيب فى هذه المنطقة بالاتفاق بين الدكتور توفيق ورئيس البعثة حتى يحقق الحفر انجازا اسرع للوصول الى الطبقة الصخرية السفلى .

وفى يوم ١٩٧٢/٤/٢٣م استبدلت مجموعة الطلبة التى تعمل فى هذه المنطقة الغربية بمجموعة الطلبة التى تعمل فى المنطقة الشرقية بالتبادل ، كما اختصرت مساحة الحفر فى هذه المنطقة مرة اخرى وانهى الحفر فيها كلية يوم ٤/٢٥ قبل الوصول الى الطبقة الصخرية . اذ اتضح ان الطبقات فيها كلها من الرديم ، كما ان مخلفاتها جميعا متشابهة فى اعلى نقطة على سطح الارض بالمنطقة مع أعمق نقطة وصل اليها الحفر . وان مخلفاتها كلها من كسر الفخار وقطع صغيرة مكسورة من الزجاج التى تنتمى لكل العصور المختلفة متشابهة سواء كانت يونانية او رومانية او بيزنطية وحتى قطع الحصى الجيرى الخالص التى وجدت بين التراب وستدرس كل هذه المخلفات ، وينشر عنها مع بقية نتائج الحفرية مستقبلا .

المنطقة الشرقية :—

وتتكون فى الواقع من منطقتين احداهما الحوض الكبير المكشوف والثانية الكنيسة الملاصقة له والموازية له والتى سبق ان اشرت لاول مرة اليها والى الحوض فى آخر صفحة من مقالى " اضواء على آثار وتاريخ توكرة " التى القيت فيها محاضرة عامة بكلية الاداب من المحاضرات العامة للكلية فى مارس ٧١م والتى ستطبع ضمن ابحاث المؤتمر السادس العربى للاثار الذى عقد فى طرابلس سبتمبر ١٩٧١م والذى نظمته جامعة الدول العربية .

ولقد كان مخطط العمل فى هذه المنطقة هذا الموسم تحديد معالم الحوض بعمقه ودرجه وعلاقته بالكنيسة الملاصقة له — ولقد حققت البعثة هذه الاهداف بالنسبة للحوض — وان كانت البعثة لم تستطع ازالة كل الاتربة المتراكمة فيه .

وببداية العمل فى هذه المنطقة عهد لبعض الطلبة تحت اشراف الدكتور غزال بازالة الاحجار المتناثرة فوق رديم الحوض والنباتات البرية فيه تمهيدا لاعداد الموقع للحفر . وبينما كان رئيس البعثة يشرف على العمل فى المنطقة الاولى استرعى نظر الدكتور غزال والطالب محمد الكواش — اثناء ازالة الاحجار — تناثر الفسيفساء ابتداء من الجانب الغربى للحوض حتى الجانب الشرقى للكنيسة الملاصقة . وكان ان سمح الدكتور غزال للطالب الكواش بتتبع الفسيفساء واظهار ارضية الكنيسة فى مجمس سطحى لقرب ارضية الكنيسة فى هذه النقطة من سطح التربة العليا وظهر فسيفساء ملون باللون الابيض مع اشكال لاجزاء من فهدين منطلقين فى

وشبة كبيرة باللون الازرق ٠

واذ كانت نية رئيس الحفرية عدم التوسع بالكشف عن الكنيسة ومحتوياتها فى هذا الموسم (حيث انه لا يعلم مدى قدرة الطلبة فى اول حفريات الجامعة على الانجاز والعمل وخشية ان يبدأ العمل فى الكنيسة والا يتم العمل فيها نهائيا قبل نهاية مدة الحفرية على تصورها ، الا ان جمال الفسيفساء والاشكال المختلفة المصورة فيه كانت دافعا له للتصريح باستمرار الحفر فى الكنيسة والحوض معا وخاصة لان توكرا لا تمتلك حتى اليوم مكتشفات من هذا النوع كما انه كان لدى رئيس البعثة تصريح مسبق من الادارة العامة للاثار بحفر الكنائس والحوض ، كما هو مثبت فى الخطابات ٠ ومن ثم بدأ تخطيط وتحديد حدود الحفرات بالضوابط والمقاييس وتسجيل كل المكتشفات من فخار وخلافه ٠

ولقد خططت الحفرية فى هذه المنطقة الشرقية بواسطة عدة حفرات (Trenches) تشمل كل صحن الكنيسة وحنيتها والدرج المؤدى للصحن والواقع فى الجانب الشمالى الغربى للكنيسة والمنطقة الممتدة امامه ٠ كما حفرت ثلاثة حفرات خارج حائط الكنيسة الغربى وحفرتان خارج حنية الكنيسة فى ملاصقة حائطها الخارجى وحفرة اخرى فى المنطقة الجنوبية الشرقية للحنية الفاصلة بينها وبين حائط الحوض وحفرة غيرها فى المنطقة الفاصلة بين حائط الكنيسة الشرقى والحوض ٠ هذا الى جانب حفرتين فى الحوض ذاته احداهما فى الركن الجنوبى الغربى للحوض والاخرى فى الركن الشمالى الغربى للحوض ، ولقد حققت كل هذه الحفرات غاياتها المتوقعة منها ٠ كما ان فى بعضها كانت هناك بعض المفاجآت غير المتوقعة مثل وجود مقبرتين خارج حائط الحنية — الدفن فيها فى جرار فخارية بيزنطية من العصر المتأخر ٠

وحيث ان طبقة الرديم التى كانت تغطى الكنيسة وارضيتها لا تزيد عن نصف متر فى ارتفاعها ، ونظرا لصغر حجم الكنيسة لذلك امكن الكشف عن الكنيسة وتنظيفها قبل نهاية الحفرية — واتضح من اعمال التنقيب ان الرديم يمثل طبقة واحدة متراكمة فوق طبقة رقيقة غير منتظمة من الجص وملتصقة بالفسيفساء العلوى لارضية الكنيسة فى بعض المناطق ، وخاصة فى جانب صحن الكنيسة الشمالى الشرقى وعند منتصف جانبها الغربى ولم يوجد اثر لطبقة الجص الجيرى الابيض الرقيقة هذه فى المناطق الاخرى من ارضية الكنيسة ولقد ظهر ان طبقة الجص هذه كونت ارضية لبعض المنشئات الخاصة المتواضعة فى عصر لاحق وربما فى العصر العربى والتى ظهر بعض آثارها غير منتظمة ومبينة بطبقة سميكة من الملاط وكتلها صغيرة متعددة الزوايا وليست متساوية فى حجمها (صورة ٢) ٠

ولقد كشفت الحفرية فى داخل الكنيسة عن حنية نصف دائرية من النوع المألوف فى الكنائس اذ هى اصغر قليلا فى قطرها عن عرض صحن الكنيسة بما يترك كتفا مستقيما بعرض ½ متر عند كل من جانبيها يتصل بالحائط الغربى والشرقى لصحن الكنيسة وتخالف الحنية فى شكلها هذا ومخططها شكل حنايا المبانى الرومانية سواء كانت هذه فى قصور مثل قصر نيرو الذهبى او حمامات رومانية مثل حمامات الفورم ببومبى اوفى باسيليكا رومانية مثل بازليكا شحات ، كما انها اكبر من الحنايا الموجودة فى المقابر الرومانية كما فى ايزولا سادرا قرب روما وتختلف عنها فى شكلها ٠ وهذه ظاهرة توضح الطبيعة المسيحية للمبنى المكتشف وتجعله يتفق مع الكنائس المسيحية ٠

ويدعم هذه الطبيعة للمبنى المكتشف ظهور صف من الاحجار بارتفاع ١٠ سم يمتد امام الحنية وعلى بعد ½ متر تقريبا من كتفها ويمتد بمحور صحن الكنيسة (Nave) ويسمى (Chancel) ومثل

هذا الصف القائم امام الحنية (صورة ٣) موجود بالكنائس المسيحية وخاصة فى تلك الكنائس التى من النوع البازيليكى ويفصل بينها وبين الحنية ما يعرف باسم (Bema)وكان يثبت فى مثل هذا الصف من الاحجار جدار خشبى به ابواب تفتح على المذبح القائم فى حنية الكنيسة فى مواجهة منتصف صحن الكنيسة (Nave) وهذا شائع فى كل الكنائس المسيحية التى من هذا النوع . وكان يرسم على واجهة هذا الجدار الخشبى او الستارة التى من القماش رسوم وصور او يثبت عليه ايقونات مسيحية كما هو شائع منذ القرن الرابع الميلادى ومن الامثلة على ذلك كنيسة البازيليكا فى دير سانت كاترين بسيناء والتى ترجع الى عصر الامبراطور جستنيان (فى القرن السادس) .

وصحن الكنيسة بعرض ½ ٥ متر تقريبا وبطول ١١ متر تقريبا ويلاحظ ان جدارا بارزا مبينا فى الحائط الغربى للكنيسة على بعد ٧ متر تقريبا من كتف الحنية الغربى ويبرز الجدار حوالى ٧٥ سم من الحائط وبسمك ½ متر .

(كان لها فى الجانب الشرقى لحائط صحن الكنيسة نظير تبعا للتوازن فى تخطيط المبنى عادة وان كان حاليا تهدم مع الجانب الشرقى لصحن الكنيسة) ، ويدل هذا الجدار البارز على ان صحن الكنيسة قد قسم الى قسمين جزء داخلى قريب من الحنية وجزء آخر خارجى ، واصغر فى طوله قليلا ، يمثل ردهة امامية ويؤدى الى مدخل الكنيسة حيث يوجد الدرج المؤدى الى الكنيسة والذى يتكون من ثلاثة درجات كما اكتشفت امام الدرج كتلتا الحجر التى كان يثبت فيهما الباب (صورة) .

ولما كانت طبقة فسيفساء الارضية العليا تمتد فى كل صحن الكنيسة بطولها من الحنية حتى المدخل ولا تمتد زخرفتها تحت هذا الجدار البارز فى الحائط الغربى فهذا يشير الى ان هذا الجدار لم يضاف على المبنى فى عصر لاحق بعد عمل الفسيفساء ولكن كان قائما عندما اخذت ارضية الكنيسة كسوتها العليا من الفسيفساء . وهذه الحائط تقسم قاعة الكنيسة هكذا الى ما يشبه ردهة امامية (Narthex) وقاعة خلفها باتجاه الحنية (apse) ولكن امتداد زخرفة الارضية الفسيفسائية بين الردهة والقاعة دون انقطاع فى التصميم يدل على ان الردهة والقاعة التى خلفها اعتبرا كما لو كانا قاعة واحدة اى صحن الكنيسة (Nave).

وهناك جدار شبيه بهذا الحائط وان كان يبرز اكثر منه عن الحائط الغربى نراه ممتدا عند نهاية صحن الكنيسة الشمالى ليحدد المدخل وبجواره قاعدة اتيكية لعمود ايونى او كورنثى صغير لم تكتشف اجزاؤه العليا بعد . وربما لا زالت فى رديم الحوض . وتمتد حائط المدخل هذه وهى بعرض ½ متر تقريبا فى اتجاه الشرق من الحائط الغربى للكنيسة وتنتهى اذ لوحظ ان احجاره تتفق فى حجمها مع احجار الجزء المجاور له من الحائط الغربى لصحن الكنيسة بل ان بعض احجاره تمتد فيه فى اتجاه الغرب حتى تكاد تشمل سمك الحائط الغربى بكامله (صورة) وهذا يشير الى ان الحائط بكتل صغيرة فى صفوف متساوية والمستند على درج المدخل متأخر عنه فى التاريخ وخاصة لان الحائط الممتد امام الدرج فى اتجاه الشمال خارج الكنيسة ليس فى سمك حائط الكنيسة الغربى بل اقل منها . ولذلك فهى اضافات على الكنيسة فى عصر لاحق بدليل انها ترتكز على سلم الكنيسة بدلا من ان ينتهى عندها الدرج .

من هذا نستنتج ان طريقة البناء باحجار مربعة او مستطيلة صغيرة فى صفوف متوازية وباستخدام طبقة سميكة من الموتة وخاصة عند اركان الكتل غير المنتظمة المعروفة باسم (Opus listatum)

وهى طريقة محلية عدت فى شمال افريقيا للقرن الخامس الميلادى ((R. Krautheimer, "Early Christian and Byzantine Architecture, Penguin Book, 1965, p. 146.

وهى طريقة معاصرة عن الجدران الاصلية للكنيسة والتى تبدو واضحة فى حائط الباب الشمالية الغربية والجزء المجاور لها من حائط الكنيسة الغربى (اى حائط الصحن الغربى) وحائط الحنية . اذ ان كل هذه الاجزاء المعمارية فى الكنيسة قد بنيت بكتل اكبر من الاحجار تبلغ فى حجمها ضعف الكتل الصغيرة المستخدمة فى الحائط المبنى على جانبى مدخل الكنيسة والمرتكن على درجها من جهة الشرق والغرب والممتد نحو الشمال امام الكنيسة وباتساعها .

اما السبب فى وجود هذا الحائط بامتداد حائط الكنيسة (وان كان اقل منها سمكا) ربما يرجع لاستخدام حائط الكنيسة كحائط لمبنى ممتد نحو الغرب كشف عن جدران له متوازيات وممتدان نحو الغرب ومرتكزان فى بنائهما على جدران الكنيسة . وكذلك كشف عن دعامة من دعامات هذا المبنى الواقع غرب الكنيسة مرتكزة على حائط الكنيسة الغربى من الخارج ، ولقد ظهرت هذه الجدران والدعامة عند اجراء ثلاثة حفرات خارج مبنى الكنيسة الغربى وخارج الحنية فى الجهة الغربية . اذ نجد الحائط الجنوبى لهذا المبنى المتأخر ترتكن على حائط الحنية مما يؤكد تأخرها فى التاريخ عن تاريخ حائط الحنية، كما ان اساسات هذا الحائط تغور الى عمق متر ونصف فقط بينما تغور اساسات حائط حنية الكنيسة وحائط جدارها الغربى الى عمق ٢م او يزيد كما فى (صورة) (الصورة رقم) ،

وان كان مما سبق يتضح ان طريقة البناء بالاحجار الصغيرة المستطيلة او المربعة ترجع الى عصر متأخر بيزنطى ـ لذلك فان الترميمات التى بالكتل الصغيرة والتى ادخلت على الحائط الغربى لصحن الكنيسة فى الجزء الواقع بين الدعامة البارزة (اى نهاية الردهة Narthex) وبين الحنية قد اقيمت فى عصر لاحق من تاريخ الكنيسة فى العصر البيزنطى ـ وان كانت اساسات هذا الحائط عند بنائها قد غارت الى نفس العمق الذى وصلته اساسات الكنيسة القديمة المبنية باحجار اكبر كما فى الحنية وكما فى الجزء الشمالى من الحائط الغربى لصحن الكنيسة (الذى يمثل حائط الردهة Narthex) الغربى .

ويلاحظ ان الجدار الشرقى للكنيسة قد بنى بسمكين متوازيين من كتل صغيرة احدهما يمثل واجهة الجدار الشرقية المتجه نحو الحوش والصف الاخر يمثل واجهة الجدار الغربية المطلة على صحن الكنيسة ويوجد بينهما كتل اصغر لملء الفراغ بين الواجهتين لهذا الحائط ـ وهى طريقة لمسناها ايضا فى بناء الاجزاء البيزنطية من سور مدينة توكرة التى اقامها الامبراطور جستنيان لتحصين المدينة ضد غزوات الوندال ((Procopius, de Aedificio, VI, 2, 4; Procopius "Buildings" translated by H.B. Dewing (Loeb) vol. VII (1954), p. 367; "Ἐν ταύτῃ δὲ τῇ Πενταπόλει καὶ Βασιλεὺς Ἰουστινιανὸς τεῖχεσιν τὴν πόλιν ἐρύματι ἐτειχίσατο ἐχυρωτάτῳ

هذا عن جدران الكنيسة وجدران المبنى الغربى المستند عليها ، اما عن ارضية الكنيسة فواضح انها مرت فى اربعة عصور غطيت فيها فى المرحلة الاولى بطبقة من الفسيفساء المزخرف على هيئة زخرفة هندسية من حبل مجدول باللون الاحمر والابيض تحصر بينهما اطارات مربعة بيضاء تضم كل منها دائرة ويحوى الاطار الواقع فى الجزء الجنوبى الشرقى لصحن الكنيسة (Nave) (صورة) سمكتين ، بينما يحوى

الاطار الموجود شماله مباشرة شريطين والفسيفساء يتكون من قطع من الرخام واضحا بين قطع الفسيفساء (tesserae) كبير الحجم نسبيا وبها يظهر الجص المثبتة فيه x، والسمك رمز من الرموز المسيحية التى كانت شائعة حتى قبل ان يصبح الدين المسيحى دينا رسميا للامبراطورية الرومانية على يد الامبراطور قسطنطين فى القرن الرابع " C.M. Corbern, The New Archaeological Discoveries and their bearing upon the New Testament and upon the life and times of the primitive church, 3rd ed., ". London, 1917, p. 397.

بل اننا نجد السمك فى المقابر المسيحية زمن الامبراطورية الرومانية فى القرن الثانى ق.م كما فى كتاكومب (مقابر) سان سباستيان بروما على فيا ابيا انتيكا بالقرب من كنيسة كورقاريس .

يعلو هذه الطبقة من الفسيفساء المسيحية طبقة بسمك ٥ سم من الجص الجيرى الخالص . ويلاحظ ان السطح العلوى لهذه الطبقة فسترى او املس وقذر اللون مما يشير الى انه استعمل كأرضية يسير عليها الناس لبعض الوقت قبل ان توضع فوقه طبقة اخرى من الفسيفساء مبنية فى طبقة من الجص بسمك ٢ سم . ويلاحظ كذلك انه اذا كسرت طبقة الجص السميكة خرجت سليمة دون ان تتكسر معها طبقة الجص التى تعلوها والمبيت فيها الفسيفساء . وهذا يؤكد ان الطبقة السميكة قد جفت لفترة طويلة قبل ان تغطى بطبقة من الجص بيت فيها الفسيفساء العلوى .

هذا وهناك طبقة اخرى من الجص رقيقة بسمك سنتيمتر غطت بعض اجزاء من الفسيفساء العلوى سبق الاشارة اليها . وقد تنتمى هذه الطبقة الى بعض المنشئات التى اقيمت فوق المبنى فى العصر العربى .

الفسيفساء العلوى (صورة رقم) :—

غطت كل ارضية الكنيسة من عتب الباب حيث ترى قاعدة العمود حتى حاجز الـ (Chancel) الذى يحجز من خلفه الـ (Bema) والحنية (Apse) — غطت كلها بطبقة بسمك ٢ سم من الفسيفساء المرسوم والمزخرف ذو الالوان البيضاء والحمراء والصفراء والسوداء والزرقاء والسوداء والمصنوع من مكعبات صغيرة الحجم (tesserae) من الرخام والاحجار الصلبة الملونة ومن الزجاج الاخضر وخلافه (ويلاحظ ان الفسيفساء المصنوع من الزجاج يتفتت على شكل تشور بسبب عوامل الطبيعة بعد تعريته لها وبسبب التنظيف ونحو يشبه فى ذلك الزجاج الرومانى الذى يرجع لبداية عصر الامبراطورية) — ولقد وضعت مكعبات الفسيفساء والصقت باحكام يكاد لا يظهر اثر للجص المبيته فيه بين المكعبات — على عكس الفسيفساء السفلى للارضية — ودقة صناعة الفسيفساء واتقانه بحجم الصغير والوانه المختلفة يذكرنا بفسيفساء قصر ليبيا .

ولقد خططت كل ارضية الكنيسة على هيئة سجادة مستطيلة الشكل بها فى مركزها مستطيل مزخرف بمناظر واشكال رمزية بموضوعات من الحياة اليومية ويقع هذا المستطيل الذى فى الوسط بدوره داخل مستطيل مزخرف بزخرفة هندسية . ويقع هذا المستطيل بدوره داخل مستطيل به موضوعات دينيه ومناظر من الحياة اليومية ويحيط هذا المستطيل فى النهاية شريط خارجى مزخرف بزخرفة هندسية بعض النتوء البارز فى الجدار الغربى للكنيسة والذى يقسمها الى ردهة وصحن . لقد عولجت كل الكنيسة كوحدة واحدة من حيث الزخرفة وليست كحجرتين ردهة وصحن اذ ان التصميم متصل فى كل الكنيسة تماما بشكل يذكرنا بتصميم فسيفساء ارضية جناح (Aisle) كنيسة قصر ليبيا — اما الحنية فلقد عولجت كلها

كوحدة واحدة مع الـ (Bema) زخرفتها هندسية تتكون من زخرفة من لونين وحدتها دائرة صغيرة من الفسيفساء الابيض على ارضية من الفسيفساء الاحمر ويحيط بالدائرة بيضاويات (تشبه المدسات المحدبة) من كل جهة من الجهات الاربع، وتتكرر هذه الوحدة فى الجنية فى الاطار الخارجى لارضية الكنيسة الملاصق لجدران الكنيسة الشرقية والغربية والحاجز الـ (chancel) جنوبا والمكتب المدخل والعمود الباقى قاعدته شمالا . هذا الشريط ذو الزخرفة الهندسية بسمك متر بينما يتفق فى طوله وطول كل جانب من جوانب صحن الكنيسة .

ولكن الوحدة الهندسية الزخرفية المستخدمة فى زخرفة الشريط الواقع بين المستطيل المركزى ذو الموضوعات والمناظر والشريط الذى يحده من الخارج ذو الموضوعات والصور الدينيه ومناظر الحياة اليومية ايضا فوحدته عبارة عن دوائر هندسية متحدة المركز وتختلف فى الحجم واللون كلما كبرت . ففى المركز دائرة صغيرة حمراء يحولها اخرى اكبر بيضاء تتبعها اخرى حمراء ثم اخرى خارجية حمراء بين خطين من الفسيفساء الابيض .. وتتكرر هذه الدوائر على كل الشريط المحيط بالمستطيل المركزى ذو المناظر والموضوعات وترتبط كل مجموعة مع المجموعة المجاورة بزخرفة مجدولة كالحبال المجدولة . وفى هذا الشريط مجموعة مناظر مرتبطة بكل مركز من تلك المراكز الاربعة الموجودة فى المستطيل المركزى الاوسط

ولقد بقى لنا من فسيفساء المستطيل الاوسط ببعض رسوماته اذ يصور المنظر الموجود فى النهاية الجنوبية منه شخصا جالسا ونصفه السفلى عارى ومتوجها بتاج نباتى وتسبح من امامه الاسماك ويقف خلفه زوج من طيور الايبيس المصرى ، مما يشير الى ان الشخص الجالس هذا يرمز لنهر النيل . يلى هذا المنظر الى الشمال فى نفس المستطيل جزء اختفى فسيفساؤه . بعد ذلك نرى قاربا يحمل راكبين بينما يمسك ثالث بالدفة . ويتجه القارب بعيدا عن منظر النيل باتجاه باب الكنيسة . ويذكرنا هذا القارب بقارب به شخصان صور فى فسيفساء صحن كنيسة قصر ليبيا ، ولقد رمز للنيل هناك بأسماك كما استدل عليه فى ذلك الفسيفساء بوجود تصوير لانهر اخرى مثل فيسون والدجلة والفرات وكأنها انهر الجنة . ولقد اندثر الفسيفساء من الجزء المتبقى من المستطيل الاوسط ، ولم يبق له اثر .

اما الشريط الاخر الذى يحمل صورا وموضوعات فلقد صورت فيه الموضوعات ايضا مثل صور موضوعات المستطيل الاوسط — متصلة دون اى فاصل بينها . وهى طريقة فى التصوير عرفها الفن الرومانى من قبل وذلك منذ العصر الامبراطورى . ولقد احتلت ثلاثة نساء واقفات الجانب الجنوبى من هذا الشريط وهو المقابل لحاجز الـ (Chancel) . ولقد وقفت النسوة ورؤوسهن فى اتجاه الحنية . وقفن تحت رواق من الاعمدة يتكون من عقود تستند على اعمدة سميكة ذات قواعد آتيكية ايونية . وزخرف بدن كل عمود بخطوط لولبية . وهو نوع من الزخرفة لبدن العمود انتشر فى كنائس العصر البيزنطى فى القرن السادس وترى اللوبيات منحوتة على وعاء صور عليه القديس " مينا " فى القرن السادس من الاسكندرية (١) وكما نرى ايضا فى كنيسة اللاترون الغربية . ولقد عرف الفن الرومانى هذا النوع من زخرفة بدن العمود منذ القرن الثانى الميلادى كما فى مقبرة الفاتيكان الكائنة تحت كاتدرائية القديس بطرس بروما .

اما الاروقة (Arcade) فلقد عرفها الفن منذ العصر البيزنطى بما يسمى قائمة الحنية . تقف المرأة التى فى الركن الشرقى الجنوبى والمنقوش اسمها (KTICIC) (اى الانشاء) مسبوقا برسم الصليب — تقف بين شجرتين من نوعين مختلفين شأنها فى ذلك شأن المرأة الواقعة فى الركن الجنوبى الغربى والتى تحمل اسم (Avaveic) وربما كان ذلك اختصارا لكلمة (Avaveiwic)

(١) D. Talbot Rice, "Art of the Byzantine Era," (Thames/Hudson, London, 1963), Fig. 6.

(بمعنى التجديد) ويسبق الاسم ايضا الصليب — اما المرأة التى تقف تحت العقد الاوسط فتحمل اسم (KOCMHCIC) (اى التزيين والتجميل) وهى ايضا تقف وعلى يسارها شجر من نفس النوع وتمسك بيمينها عصا . ويوجد الصليب قبل اسمها .

والنسوة قصيرات وبدينات ويتميز شكلهن بال (frontality) التى عهدناها فى الفن البيزنطى منذ عصر الامبراطور قسطنطين (كما ترى فى رأس الامبراطور الرخامية فى روما)[1] ، وتبدو العينان براقتان والشعر بطريقة اصطلاحية وحول رؤوسهن ما يشبه برداء الـ (halo) كالقديسات ومتد تراث حتى الاقدام برداء ثقيل اسود يطبعهن بطابع من الوقار . وفى الفراغ الناتج عن تلاقى كل عقد بالاخر وكذلك عند الركنين تقف حمامة وهكذا نرى اربعة من الحمام فى هذا الجانب من فسيفساء صحن الكنيسة .

اما فى الجانب الغربى لهذا الشريط فنجد صورة لشيخ عجوز ذى لحية يمثل النهر فيسون (PICWN) ويسبق اسمه الصليب ، ويجلس فيسون على جرة مستديرة ينسكب منها الماء بقوة ويحمل فى يديه جرة اخرى بنفس الشكل تقف على الجرة طير يتجه بمنقاره نحو فيسون وتنمو النباتات من خلف الجرة التى يحملها فيسون ، وترتوى بقرة من الماء المنسكب بغزارة من الجرة وتمسك امرأة واقفة خلف البقرة بحبل يثبت فى رقبتها . كما تحمل المرأة طفلها الذى يمسك برمانة — بينما نرى بقرة اخرى خلف الاولى تأكل من النباتات النامية خلف الجرة التى يمسك بها فيسون ، ومن خلف المرأة نرى شجرة وافرة الثمار من الرمان وترى تصويرا آخر لفيسون مماثلا لما نراه هنا وفى يده الجرة وتحته اخرى ينسكب منها الماء فى فسيفساء صحن كنيسة قصر ليبيا . ويلى هذا المنظر الذى يمثل الحياة اليومية فى الريف منظر آخر نحو الشمال يمثل ذئبا يأكل ثعبانا ، وهو منظر يتكرر فى فسيفساء ليبيا ، اذ يظهر مرتين فى فسيفساء كنيسة قصر ليبيا مرة فى صحن الكنيسة ومرة اخرى فى جناحها (aisle).

يلى الظبى جزء اندثر فسيفساؤه ويتبعه منظر جديد . اذ يظهر فارس راكبا حصانا يجرى فى وثبة كبيرة ويدفع الهواء بالرداء المثبت حول كتف ورقبة الفارس ويتجه الفارس والحصان تجاه الشمال وهو شاهر رمحه نحو فم اسد يهاجمه فى وثبة باتجاه الحصان نحو الجنوب بينما نرى كلب الفارس راكضا نحو الاسد فى مستوى اسفل بالنسبة ليهاجم الاسد فى بطنه . والفسيفساء بعد منظر القنص هذا متآكل الاجزاء ولكن تظهر بقايا الاسد آخر وحيوانات اخرى لا يمكن الاستدلال عنها .

اما الفسيفساء فى الجناح الشرقى لهذا الشريط فلقد اندثر ليظهر من تحته الفسيفساء القديمة للكنيسة . وعند منتصف الشريط الشرقى نجد بقايا لفهدين كانا اول ما ظهر من الفسيفساء فى الحفرية .

وبينما اختفى الجناح الجنوبى لهذا الشريط من الفسيفساء الا فى بعض اجزاء الزخرفة الهندسية ، نجد ان الركن الشمالى الشرقى منه لا زال مختفيا تحت طبقة الجص الرقيقة الطيبة التى تغطيه والتى لم يتم ازالتها بعد .

من الواضح ان هذا الفسيفساء فى تصميمه الى مستطيلات احدهما داخل الاخر وفى تناوب الزخرفة الهندسية فى كل شريط مع الشريط المرسوم باشكال آدمية وحيوانات وطيور واسماك وموضوعات دينية وغيرها من الحياة اليومية ومناظر الريف والقنص والبحر والنهر كلها تطابق فى تصميمها فسيفساء جناح (aisle) كنيسة قصر ليبيا . كما ان الموضوعات المصورة عليها سواء النسوة باسمائهن او النهر فيسون او النيل تذكرنا بمثيلاتها التى كثيرا ما تكون تكرارا لها فى موضوعها وشكلها والموجودة فى صحن كنيسة قصر ليبيا .

---

(1) Volbach/Hirmer, "Early Christian Art," 1961, pl. 16.

كل ذلك يشير الى فسيفساء كنيسة قصر ليبيا وفسيفساء كنيسة توكرة التى كشفنا عنها فى الحفرية يمكن ارجاعهما الى يد فنان واحد يبدو انه من فنانى الاسكندرية التى اشتهرت مدرستها بصناعة الفسيفساء . ويؤكد ذلك تصوير النيل فى الفسيفساء فى كل من الكنيستين المذكورتين . كما ان مدرسة اسكندرية — كما امتد نفوذها غربا ، امتد شرقا فى نفس الفترة لتزخرف فسيفساء كنيسة مادبا بالاردن والتى تمثلها خريطة النيل وسيناء وفلسطين وفسيفساء كنيسة جرش بما عليها من صورة لمدينة الاسكندرية ومنارتها .

ويمكن كذلك ارجاع فسيفساء كنيسة توكرة المكتشفة الى نفس عصر فسيفساء كنيسة قصر ليبيا الذى ارجعه جودتشايلد الى ٥٢٩ م بمناسبة تأسيس مدينة ثيودورا الجديدة نسبة لزوجة الامبراطور جستنيان (R. Goodchild in "Supplement to the Illustrated London News, December 14, 1957).

وكذلك تشبه فسيفساء القدس وخلده فى لبنان كما يقول جرابار .

ومع هذا التشابه الكبير فى الزخرفة والموضوعات والاشكال المصورة والصناعة وحجم والوان مكعبات الفسيفساء فاننا نلاحظ ان الاسماء المذكورة على فسيفساء كنيسة توكرة — موضوع الدراسة — يسبقها الصليب وان كان ذلك يؤكد طبيعتها المسيحية الى جانب طريقة تشكيل وتصوير الاشخاص بما عرف عن الفن البيزنطى الا ان اختفاء وجود الصليب قبل هذه الاسماء فى فسيفساء قصر ليبيا جعل من السهل تفسير ذلك الفسيفساء الى انها تجسيد للمعانى المدرجة لها مثل التشييد والتزيين والتجديد اى تجسيد لهذه المعانى فى صورة نسوة ، بينما قد تبدو هذه المعانى فى فسيفساء توكرة كما لو كانت اسماء لاشخاص مسيحيين تحمل اسماءهن هذه المعانى وان هؤلاء الاشخاص كن قديسات او شهداء — ومن وجود الصليب قبل اسم كل شخص — ولقد ورد التفسير الاخير بالنسبة لفسيفساء قصر ليبيا ومما يعزز هذا التفسير فى فسيفساء توكرة اكتشافنا لبعض العظام او رفات بعض الموتى موضوعة فى جرتين بيزنطينيتين وجدت احداهما واقفة خلف الحائط الخارجى للحنية وملاصقة لها وعلى مستوى اعلى من الصفين السفليين لاساسات هذا الحائط (صورة) مما يشير الى ان الجرة ترجع الى عصر متأخر بالنسبة لانشاء الحنية وربما كان ذلك هو عصر تجديد الكنيسة وترميمها وتزيينها بالفسيفساء العلوى الذى عليه صور هؤلاء النسوة المذكورة اسماؤهن .

اما الجرة الاخرى فلقد اكتشفت فى فجوة بين حائط الحنية الخارجى تجاه الشرق وحائط الحوش المجاور للكنيسة . وهنا نتساءل لماذا وجدنا فقط جرتين بهما قليل من العظام ؟ من المألوف حديثا ان نجد فى القرى فى اوروبا المقابر حول الكنيسة . ولكن نجد هناك العديد من المقابر — ولكن وجود مقبرتين هنا فى توكرة مع قليل من العظام بهما وفى مكان ملاصق لحنية هذه الكنيسة يجعلنى اعتقد بان هناك اهمية للاشخاص الذين وضعت عظامهم فى هاتين الجرتين وفى هذه البقعة المهمة من هذه الكنيسة الصغيرة وربما كانت هناك رابطة بين اصحاب هذه العظام وبين الاسماء المذكورة فى فسيفساء الكنيسة حيث ان الجرتين وكذلك موقعهما بالنسبة لاساسات الكنيسة تشير الى اتفاق بين عصرهما وعصر الفسيفساء العلوى للكنيسة — هل كان اصحاب هذه العظام اذن من القديسات او الشهداء حتى تحتل الجرتان التى تضم رفاتهن هذا المكان الهام من هذه الكنيسة ؟ هذا ما نأمل ان نتوسع فى دراسته حينما نستكمل البحث .

ولقد كان هناك تساؤل آخر — وهل هذا المبنى حقا كنيسة ؟ قد يكون التساؤل فى موضعه اذ ان المبنى بحنيته لا يتجه نحو الشرق او الغرب كما هو مألوف عادة فى الكنائس فى ليبيا على الاقل بل تتجه الحنية نحو الجنوب الشرقى كما هو واضح من المخطط . اجابتنا على ذلك هو ان الكنيسة وان كان تجديدها

فى اوائل القرن السادس بما حظيت به جدرانها من ترميم باحجار صغيرة تتفق وحجمها والاحجار التى بنى بها الحمام البيزنطى القائم حاليا فى جمنازيوم مدينة توكرة الواقع جنوب هذه الكنيسة ((انظر مقالة الفخرانى: اضواء على تاريخ وآثار توكرة ، التى ستنشر ضمن ابحاث المؤتمر الدولى السادس للاثار المنعقد فى طرابلس سبتمبر ٧١)) وكذلك بما حظيت به من فسيفساء جدرانه يتفق وفسيفساء صحن وجناح كنيسة قصر ليبيا — ان كان هذا التاريخ صحيحا ، لذلك فانا نعتقد ان طبقة الارضية الجصية السميكة الكائنة تحت هذا الفسيفساء ترجع للقرن الخامس بينما يرجع تاريخ تأسيس الكنيسة بفسيفسائها السفلى ذو الاسماء الى القرن الرابع وهو بداية العصر البيزنطى حينما كان الامر لم يستقر بعد على اتخاذ اتجاه محدد للكنائس سواء تجاه الشرق او الغرب ((انظر حنايا كنائس اللاترون وكنائس سوسه فى اتجاهاتها)) ، اى ان الكنيسة بنيت فى القرن الرابع وما حدث فى القرن الخامس والسادس مجرد ترميم وتجديد ومن الملاحظ ان الكنيسة بنيت منذ البداية ككنيسة وليست مثل الكنيسة الشرقية بتوكرة مبنى رومانيا حول فيما بعد الى كنيسة .

والنقطة الاخرى هو انه كيف تكون هناك كنيسة بدون اجنحة (aisles) اذ ان الطراز البازيليكى للكنائس كان يحتم وجود جناح ايمن صحن الكنيسة وآخر عن يسارها . ولقد تحققت باجراء حفرة فى الجانب الغربى (صورة) لم أجد فيها اى اثر لجناح للكنيسة مما يجعلنى اعتقد بانها كانت بدون اجنحة . وفى الواقع انما بنيت الاجنحة فى الكنائس الكبيرة العريضة التى لا يمكن اقامة سقفها الا مستندا على اعمدة او دعامات الاجنحة لكى يسهل تثبيت العوارض الخشبية او الحجرية عبر القاعة لبناء السقف وحماية له من السقوط — ولكن هذه الكنيسة ليست عريضة ، ويمكن اقامة سقف عبرها بسهولة دون حاجة لمثل هذه الدعامات والاعمدة التى تمثل احد جوانب الاجنحة عادة . وهناك امثلة لكنائس صغيرة تتكون من صحن فقط وحنية ومثالنا على ذلك الكنيسة المكتشفة فى عمان بالاردن والتى تتفق تقريبا وعصر كنيسة توكرة بما لها من زخرفة ارضية فسيفسائية . " ((B. Van Elderen, "The Byzantine Church at Swafieh" in the Annual of the Department of Antiquities, Amman, Vol. XV, (1970) pp. 25-29))

هكذا يتضح ان المجسات التى حفرناها فى جنوب الحنية من الخارج وفى جنوبها الشرقى قد كشفت لنا عن المقابر الملاصقة للحنية وعن عمق اساسات الكنيسة القديمة التى تتفق وعمقها الذى كشفنا عنه فى الجانب الغربى خارج كل من الجزء المرمم من الحائط الغربى ذو الاحجار الصغيرة والجزء القديم ذو الاحجار الكبيرة ، بينما كشفت الحفرة الواقعة جنوب الحنية من الخارج ايضا عن حداثة تاريخ استخدام الاحجار الصغيرة فى البناء بالنسبة لتلك الاحجار الكبيرة وان كان كلاهما يرجع للعصر البيزنطى ، كما كشفت عن عمق المبنى الملاصق للكنيسة من الغرب والذى يستند على حنيتها من الخارج . ولقد اظهرت الحفرتين التى حفرناهما فى الجانب الغربى للحائط الخارجى دعامات المبنى الغربى الحديث (وان كان من العصر البيزنطى) وكذلك جدرانه الشماليه الممتدة نحو الغرب موازية لجدرانه الجنوبية المستندة على حائط الحنية الخارجى .

الحوض :—

حفرت به حفرتان عند الركنين الجنوبى الغربى والشمالى الغربى المجاورين للكنيسة . ولقد كان الغرض من الحفرة الاولى هو الحصول على تحديد دقيق للطبقات التى تكون رديم الحوض حتى استطيع تحديد الطريقة المناسبة لازالته ، ولقد ثبت ان الرديم تكون من طبقة واحدة خليط من الاحجار والتراب وان كانت بعض النباتات البرية قد نمت فوق السالح بفعل المطر (صورة).

ولقد لوحظ ان الحوض فى جزئه العلوى القريب من انبوبة الفخار العليا الموصلة اليه والواقعة فوق جداره الجنوبى الغربى والتى كانت بطبيعة الحال تمده بالمياه — لوحظ ان الجدران فى اجزائها العليا قد بنيت باحجار من كتل صغيرة وضعت فى صفوف واستعمل الملاط فى وصلها بعضها بالبعض بنفس الطريقة والحجم الشائع فى شمال افريقيا منذ القرن الخامس الميلادى والمعروف باسم (opus listatum)(١) الذى شاهدناه فى المبنى الغربى المرتكز على حنية الكنيسة وفى ترميمات الكنيسة المتأخرة فى جدرانها الشرقية والغربية وفى الحائط المرتكن على درج سلم الكنيسة الامامى والممتد على جانبى السلم نحو الشمال الغربى بامتداد جدران الكنيسة الغربية والشرقية . وتتكون كل كتلة من ٢٥ × ٢٠ سم ولا تكون اركانها زوايا قائمة بدقة ولذلك فطبقة المونة عند الاركان اسمك كما ان جوانبها ليست دقيقة فى مقاساتها ويرى فى الحوض فى هذه المنطقة ثلاثة صفوف من هذه الكتل وان كانت هناك صفوف اكثر فى مناطق اخرى من الحوض تبعا لعمق الصخر الذى حفرت فيه جوانب الحوض . ولقد لوحظ ايضا فى هذه الحفرة وجود طبقة ملساء سميكة ومتقنة تغطى جوانب الحوض وارضيته التى وصلت فى عمقها ٢٫٤ م من سطح الارض (صورة) وتمتاز هذه الطبقة بلونها الاحمر لدخول مسحوق قطع صغيرة من قوالب الاجر المحروق فى تركيبها وذلك لان مسحوق الاجر المحروق يكسب الملاط خاصية سد المسام بما لا يسمح للماء بالتسرب من خلاله وهى طريقة رومانية نصح باستخدامها المهندس المعمارى الرومانى " فيتروفيوس " الذى عاش فى القرن الاول ق.م فى كتابه الذى كتبه عن العمارة وقدمه هدية للامبراطور اغسطس (Vitruvius, De Architectura V, 10, 3 و VII, 4, 1.) ولقد ساد استخدام هذه الطريقة فى صناعة الملاط بالنسبة للحمامات الرومانية التى نراها فى روما وفى غيرها من اجزاء الامبراطورية الرومانية مثل حمامات تراجان وكاراكلا بروما وكذلك حمامات ستابيا بمدينة بومبى وحمامات كوم الدكة باسكندرية وحمامات تراجان بشحات . وذلك فى احواض المياه وخاصة الفريجيداريوم والتالداريوم واستخدمت كذلك فى الحمامات البيزنطية بتوكرة المبينة فى الجمنازيوم اليونانى والتى تشرف عنها فى مقالى سابق الذكر ضمن ابحاث المؤتمر العربى للاثار .

ولقد ظهر فى الحفرة ان طبقة الملاط الاحمر عند الاركان كانت سميكة بحيث تغطى زاوية تلاقى كل جدارين بعضهما بالبعض وهى هنا تغطى نقطة تلاقى الجدار الغربى للحوض مع الجدار الجنوبى له كما ان ارضية الحوض يحيطها طبقة سميكة من نفس الملاط الاحمر عند تلاقيها بالجدران . وبذلك تظهر ارضية الحوض محاطة باطار سميك من الملاط الاحمر من كل الجوانب الاربعة للحوض . وذلك خشية تسرب المياه عند وصلات الاركان بعضها بالبعض وعند وصلة ارضية الحوض بجوانبه وذلك زيادة فى الاحتياط لحفظ المياه فى الحوض . وهذه الظاهرة غير شائعة فى الفريجيداريا الرومانية والبيزنطية ولا حتى فى خزانات المياه الرومانية والبيزنطية سواء التى فى طلميطلة او فى صفاقس قرب شحات — وهذا يعطى هذا الحوض اهمية تختلف عن الصهاريج الاخرى العديدة الموجودة فى ليبيا واحواض المياه بما فى ذلك حوض قصر الاعمدة بطلميطلة .

اما المجس الاخر والذى اجرى فى الركن الشمالى الغربى الملاصق لمدخل الكنيسة فكان الغرض منه الكشف عن مكان الدرج المستخدم فى الحوض للنزول الى قاعه سواء لتنظيف قاعه مما يترسب فيه من تراب على مر الايام عند تنظيفه او لمن يريد ان يستفيد بمياه الحوض للغطس — وخاصة ان كان هذا للتعميد . ولقد ظهر فعلا الدرج كما توقعت ولقد استرعى النظر ان الدرج فى الركن فقط ولا يمتد بعرض الحوض، كما فى

① R. Krautheimer, Early Christian and Byzantine Architecture, 1965, p. 146.

الدرج الموجود فى احواض الحمامات من فريجيدا ريا او كالدا ريا . وهذا يوضح طبيعة الحوض المختلفة عن طبيعة احواض الحمامات المخصصة للاستحمام فى العصر الرومانى او البيزنطى .

وحيث ان الحوض يلاصق هذه الكنيسة ويقع درجه فى الجانب القريب من درج الكنيسة حيث انه فى كثير من الاحيان نجد المعمدبات قريبة من مداخل الكنيسة كما ان المعموديات المسيحية كانت فى كثير من الاحيان مبان قائمة بذاتها ((كمبنى كبير مستقل وذلك حتى القرن ١١ الميلادى ، كما هو الحال فى معمدية اللاتيران بروما)) ((والتى ترجع للقرن الرابع والخامس الميلادى Early Christian Art, The Late Roman and Byzantine Empires from the third to the seventh centuries" text by W.F. Volbach, photoes by Max Hirmer, (Thames & Hudson, London, 1961, pl. 26)). كما ان المعموديات تكون ايضا بشكل حجرات مستطيلة او مربعة تقوم بجوار الكنيسة او جناحها كمبنى مستقل احيانا وهذا الشكل انتشر فى القرن الرابع فى كل العالم اليونانى (R. Krautheimer, "Early Christian and Byzantine Architecture, Penguin Book, 1965, pp. 140, 141.)).

لذلك ربما كانت هناك علاقة بين الكنيسة والحوض والمقابر بما يعطى لهذه الكنيسة اهمية خاصة دون الكنائس الاخرى بتوكرة رغم صغرها وصغر حجمها ليس تقليلا لاهميتها بل ان زخرفتها لتؤكد اهميتها كما ان صغرها ناشئ عن كثرة وجود الكنائس فى توكرة والتى يصل عددها لاكثر من عشرة كنائس رغم صغر حجم المدينة القديمة وقلة السكان فيها بطبيعة الحال - وربما كان صغر حجمها لانها كنيسة لقديسات او شهيدات حفظت رفاتهن فى هذه الجرار اسوة برفات القديسة كاترينا السكندرية المحفوظة فى بازيليكا دير سانت كاترين بسيناء - وربما كان هذا الحوض للتعميد الجماعى . او كصهريج لمياه التعميد لخدمة الكنائس الثلاثة او الاربعة المحيطة به والقريبه منه . وربما استخدمت مياهه للتبرك والاستشفاء بالنسبة للمرضى من المؤمنين - وليست مثل هذه الاحواض على كبر حجمها بالشئ الغريب . اذ ان التعميد الجماعى بالمياه عرف منذ العصر الهلينستى . ولقد اكتشفت فى كانوب (ابى قير) حوض كبير لاستحمام المؤمنين الذين يدخلون فى عباة الاله سيرابيس المصرى " Ev. Breccia, "Le Rovine e i Monumenti di Canope," in Monuments de l'Egypte Greco-Romaine, I, Bergamo, 1926, pp. 46 ff.; Breccia, "Di Alcuni Bagni nei dintorni d'Alexandria" in "Bulletin de la Société archéologique d'Alexandrie, 18, (1921), pp. 147 ff.".

وحيث ان الحوض يوازى ويلاصق الكنيسة ومدخلها فى اتجاه واحد ومتجاورين وطريقة بناء الحوض يتفق مع ترميم الكنيسة وتزيينها بالفسيفساء العلوى ومع الحمامات البيزنطية المتأخرة الموجودة بجضانيوم توكرة اليونانى لهذا اعتقد وخاصة لاختلاط ملاطها الاحمر بجزيئات الاجر المحروق - كلها تشير الى ان الحوض بنى فى نفس العصر الذى اعيد فيه ترميم وتزيين الكنيسة وهو اوائل القرن السادس الميلادى .

ولا يسعنى فى هذا التقرير الا ان اشيد بكل من ساعد فى نجاح الحفرية واخص بالذكر الطلبة والزملاء الدكتور توفيق سليمان والدكتور احمد غزال واكرر شكرى لهم، وانوه بفضل الجامعة الليبية (كلية الاداب) والادارة العامة للاثار فى كل التسهيلات التى قدموها ٠

وآمل ان يتيسر قريبا تتمة الابحاث ونشر الدراسات المتعلقة بالحفرية ٠

((د ٠ فوزى عبد الرحمن الفخرانى))
رئيس قسم الاثار ومدير حفريات الجامعة الليبية (كلية الاداب)
بتوكرة (١٧ـ١٩٧٢/٤/٢٩)

مرفقات :ـ

١ـ ٢ خريطة (مخططات للحفرية ولموقع الكنيسة والحفر بالنسبة للكنيسة الشرقية والقلعة ٠
٢ـ عدد صورة عن الحفرية ٠
٣ـ نسخة من مقالى " اضواء على تاريخ وآثار توكرة " ٠

نسخة لعميد كلية الاداب بالجامعة الليبية
نسخة للادارة العامة للاثار الليبية
نسخة لمراقبة آثار بنغازى

ط/ رمضان ناجى بوشعالة **